الفصول

في الأسئلة وأجوبتها

للإمام الغزالي

تحقيق وتعليق

الدكتور

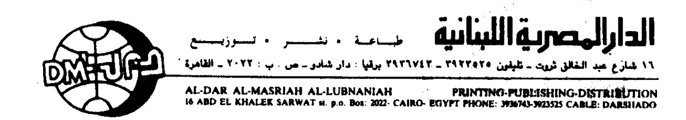
أحمد عبد الرحيم السايح

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

الفُصُول
في الأسئلة وأجوبتها

الطبعـة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م



تقـــديم

الحمد لله رب العالمين ، الذى أنعم على خلقه بنعمة الروح وجعله فيضا يفيض به على من يشـاء .

والصلاة والسلام على الرسول محمد الصادق الأمين ، الذى أرسله الله رحمة وهداية للناس أجمعين .

أما بعــد :

فإن كتاب « **الفصول فى الأسئلة وأجوبتها** » للإمام حجة الإسلام الغزالى من أنفع الكتب فى موضوعها ؛ لأن عقل الإنسان طلق ، مافتىء فى كل وقت وحين ، يتطلع إلى التساؤل عن الروح وما يتصل بها .

وحجة الإسلام يدرك ماللعقلية الإنسانية من تطلع وحب للاستطلاع والمعرفة ، ولهذا وضع كتابه « **الفصول فى الأسئلة وأجوبتها** » ليشمل الفصول التالية :

الفصل الأول : عن معنى قوله – تعالى – : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

والفصل الثانى : عن النفخ .

والفصل الثالث : عن الروح وحقيقتـه .

والفصل الرابع : عن حقيقة هذه الحقيقة .

والفصل الخامس : عن معنى قوله – صلى الله عليه وسلم –: « **إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن** » .

والفصل السادس : عن معنى قوله : « **من عرف نفسه عرف ربه** » .

والفصل السابع : عن معنى قوله ﷺ : « **خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام** » . وقوله – عليه الصلاة والسلام – : « **أنا أول الأنبياء خلقاً ، وآخرهم بعثا ، وكنت نبيا وآدم بين الماء والطين** » .

★ ★ ★

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الحجر .

إن هذه الفصول السبع التى اشتمل عليها الكتاب ، تتعرض لموضوعات فى غاية الأهمية ، خاصة بالنسبة للإنسان المعاصر ، الذى شهد تقدماً علميّاً هائلاً . ويريد أن يقف على أمور لا تخضع للعلم .

إن الغزالى كان دقيقاً فى غاية الدقة ، وهو يجيب على هذه الأسئلة ، التى قد تكون وجهت إليه فعلاً ، وقد لاتكون وجهت إليه أسئلة من هذا النوع ، وإنما رأى هو حاجة الناس إلى هذا النوع من الموضوعات . فوضع الأسئلة والأجوبة ؛ ليكون لها وقع فى النفوس . ولازال الناس يحبون أن يقرأوا مايأتى إجابة عن أسئلة .

والأمة الإسلامية تتطلع إلى غد مشرق بالثقافة الإسلامية الأصيلة ، وثقافتنا الإسلامية الأصيلة نستمدها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وما جاء عن السلف الصالح .

ومن شأننا أن نقرأ أقوال علمائنا الأماجد فإن فيها ما يطمئن العقل والقلب معاً .

أسـأل الله أن ينفع بهذا الكتـاب .

الدكتور / **أحمد عبد الرحيم السـايح**

ترجمة
الإمام الغزالى

الإمام الغزالى هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسى[١] الغزالى[٢] المعروف بأبى حامد ، نسبة إلى ابن له توفاه الله صغيراً . والملقب بحجة الإسلام لذوده عن حياض العقيدة الإسلامية بفكره وقلمه .

ولد الغزالى بمدينة طوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٩م . وكان والد الغزالى يشتغل بغزل الصوف ، فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق متصوف هو الشيخ أحمد بن محمد الرازكانى الذى عنى بتعليم محمد الغزالى وأخيه أحمد وتفقيههما الفقه الشافعى وأصوله[٣] .

---

١ ــ نسبة إلى طوس : مدينة من أعمال خراسان ، سميت أولا طابران ، فتحها المسلمون سنة ٢٨ هـ - ٦٤٩ م وضربها المغول ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م فيها قبر هارون الرشيد .

٢ ــ يضبط اسم الغزالى على وجهين : إما بتشديد الزاى نسبة إلى غزال على طريقة أهل خراسان . وإما بدون تشديد ، نسبة إلى غزالة ، وهي علم لبلدة قرب طوس .

٣ ــ تاج الدين أبو نصر السبكى طبقات الشافعية جـ٦ ص ١٩١ .

ولما حصل محمد الغزالى على طرف من الفقه . سافر بعد ذلك إلى جرجان . فأخذ عن أبى نصر الإسماعيلى ، ثم رجع إلى طوس ، فمكث فيها ثلاث سنين يشتغل بما كان قد حصله من العلم .

وبعد ذلك قدم نيسابور ، ولازم إمام الحرمين ضياء الدين الجوينى ، وجد واجتهد ، حتى برع فى فقه الشافعى ، وأصُول الفقه ، وأصُول الدين ، والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة [٤] .

يقول الغزالى : لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحَذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغاذر باطنيّاً إلا وأحب أن أطلع على بطانته .

ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

---

٤ — الدكتور عبد الفتاح بركة : الإمام الغزالى الذكرى المئوية التاسعة لوفاته ص ١١٩ (جامعة قطر ١٤٠٦ هـ) .

ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبداً إلا وأترصد مايرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته »[٥] .

وفى سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م خرج الغزالى من نيسابور بعد وفاة شيخه الجوينى ، إلى المعسكر الذى كان فيه نظام الملك « وزير السلطان السلجوقى » . وظل يختلف إلى مجلسه ، ويسهم فى مختلف المناظرات ، بآرائه وأفكاره . حتى إذا تأكد هذا الوزير من تألقه وظهوره على الكثيرين من علماء عصره ، بعلمه الجم ، وخبرته الواسعة ، أسند إليه مهمة التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد حيث السلجوقيون المؤيدون للسنة .

---

٥ ـ الغزالى : **المنقذ من الضلال** ص ٨٠ ، ٨١ ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٥ بتقديم الدكتور عبد الحليم محمود .

واستطاع فى مهمته الجديدة كَمُرَبٍّ مسئول عن تعليم عدد هائل من الطلاب . أن يؤكد جدارته واقتداره واستحقاقه لثناء الناس وإعجابهم[٦] .

وقد شاهد الغزالى أحداثاً خطيرة فى هذه الحقبة ، منها : مقتل نظام الملك – الوزير السلجوقى الكبير – سنة ٤٨٥ هـ – ١٠٩٢ م ، ومنها موت السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان فى السنة نفسها ، ومنها وفاة الخليفة المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٤ م ، كما شاهد حفل تنصيب الخليفة المستظهر بالله[٧] .

كل هذه الأمور دفعت الغزالى لأن يترك المنصب الكبير وهو التدريس فى المدرسة النظامية ، ويفارق بغداد ، ويتوجه إلى الشام ٤٨٨ هـ – ١٠٩٥ م[٨] .

يصور الغزالى تلك اللحظات الحاسمة من حياته فيقول : « فلم أزل أتفكر فى الأمر مدة ، وأنا بعدُ على مقام الاختيار ،

---

٦ – أحمد السلاوى : علم الكلام ونظريات الغزالى ص ٢ ، ٣ ط المعهد التربوى الوطنى ، الرباط ، المغرب ١٤٠٣ هـ .

٧ – راجع الدكتور فائز محمد على الحاج : **أبو حامد الغزالى** جـ٣ ص ٣١ من أعلام التربية العربية الإسلامية ط مكتب التربية العربى لدول الخليج ١٤٠٩ هـ .

٨ – راجع خالد معاذ : **دمشق أيام الغزالى** ص ٤٧٩ – ٤٨٩ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

أصمم العزم على الخروج من بغداد ، وأصل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر فيه أخرى ، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة ، ستة أشهر ، أولها رجب ٤٨٨ هـ . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله – تعالى – التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام[٩] » .

لقد اتجه الغزالى إلى الشام ، وعاش عيشة الزهاد فى مئذنة جامع دمشق الأموى ، وقد عرفت بالمئذنة الغزالية ، وبعد مرور سنتين رحل الغزالى إلى بيت المقدس ، وكان كثير الاعتكاف فى مسجد قبة الصخرة . وبعد ذلك سافر إلى مكة فأدى فريضة الحج ، ثم اعتزم بعد ذلك الرحلة إلى المغرب سنة ٤٩٩ هـ – قاصداً زيارة الأمير يوسف بن تاشفين[١٠] ، ولكنه لما وصل الإسكندرية علم بوفاته فرجع إلى نيسابور .

---

٩ ـــ الغزالى : **المنقذ من الضلال** ص ١٢٤ ، ١٢٥ بتصرف واختصار .

١٠ ـــ يوسف بن تاشفين من أكبر سلاطين المرابطين بانى مراكش ، استولى على فاس ، وغزا الأندلس وانتصر على الإفرنج فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ – ١٠٨٦م ، بايعه ملوك الأندلس بإمارة المسلمين ، توفى بمراكش **٥٠٠ هـ** « **الموسوعة العربية الميسرة** » .

وأنت ترى أن رحلته الطويلة التى زار فيها الشام وفلسطين والحجاز ومصر عشر سنوات – وظل مدة فى مدينة نيسابور ، حيث عاد بعدها إلى طوس . ثم دعاه ضياء الملك بن نظام الملك فتولى المدرسة النظامية سنة ٥٠٤ هـ للتدريس فى بغداد ، فاعتذر عن ذلك ، وقد بنى بجوار داره مدرسة للفقهاء ، ومأوى للسالكين ، وفاضت روحه فى الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ الموافق ١١١١ م .

بقى أن نعرف أن الغزالى متأثر إلى حد كبير بمنهج الإمام الأشعرى ، وأنه مؤلف مكثر ، حتى لقد خلف حوالى ثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم والفنون خصها بالذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتاب له .

الفصول

في الأسئلة وأجوبتها

للإمام الغزالي

بســـم الله الرحمـن الرحيـــم

هذه فصول ذكرها الإمام حجة الإسلام قدس الله روحه – فى جواب أسئلة سئل عنها

الفصل الأول :

سئل عن معنى قوله – تعالى – : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1] . وعن معنى « التسوية » ؟؟..

فقال – رحمه الله –: التسوية : فعل فى المحل القابل للروح ، وهو الطين فى حق آدم ، والنطفة فى حق أولاده بالتصفية وتعديل المزاج ، فإنه كما لايقبل النارَ يابس محض ، كالتراب والحجر ، ولا رطب محض ، كالماء . بل لا تتعلق النار إلا بمركب ، ولا كل مركب فإن الطين مركب ، ولاتشتعل فيه النار ، بل لابد بعد تعديل تركيب الطين الكثيف من تردد فى أطوار الخلقة ، حتى يصير نباتاً لطيفاً ، فيتشبث به النار ، وتشتعل فيه . فكذلك الطين بعد أن ينشئه الله خلقاً بعد خلق ، فى أطوار متعاقبة ، يصير نباتاً ، فيأكله الآدمى ،

---

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الحجر .

فيصير دما ، فينتزع القوة المميزة المركبة فى كل حيوان من الدم ، صفوة الذى هو أقرب إلى الاعتدال ، فيصير نطفة ، فيقبلها الرحم ، ويمتزج بها منى المرأة ، فيزداد به اعتدالاً ، ثم ينضجها الرحم بحرارته ، ويزداد تناسباً ، حتى ينتهى فى الصفاء ، واستواء نسبة الأجزاء إلى الغاية ، فيستعد لقبول الروح وإمساكها ، كالفتيلة التى تستعد عند تشرب الدهن لقبول النار وإمساكها .

فالنطفة عند مادة الاستواء والصفاء تستحق باستعدادها روحاً يدبرها ، ويتصرف فيها ، فيفيض إليها الروح من جود الجواد ، الحق الواهب لكل مستحق مايستحقه ، ولكل مستعد مايقبله ، على قدر قبوله ، واحتماله ، من غير منع ، وبخل .

فالتسوية عبارة عن هذه الأفعال المردودة ، لأصل النطفة فى الأطوار السالكة بها إلى صفة الاستواء ، والاعتدال ..

الفصل الثـانى :

وسـئل عن النفخ ؟

فقال رحمه الله : النفخ : عبارة عما اشتعل به نور الروح فى فتيلة النطفة . وللنفخ صورة ونتيجة . أما صورته : فإخراج الهواء من جوف النافخ فى جوف المنفوخ فيه ، حتى يشتعل الحطب القابل للنار .

فالنفخ سبب للاشتعال ، وصورة النفخ الذى هو سبب فى حق الله – تعالى – محال ، والمسبب غير محال . وقد يكنى بالسبب عن الفعل الذى يحصل المسبب على سبيل المجاز ، وإن لم يكن الفعل المستعار له على صورة الفعل المستعار منه . كقوله – تعالى – : ﴿ غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾[2] . وكقوله : ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾[3] .

والغضب : عبارة عن نوع تغيير فى الغضبان ، يتأذى به ، ونتيجته إهلاك المغضوب عليه بالغضب . فعبر عن نتيجة

---

(٢) من الآية : ١٤ من سورة المجادلة ، ومن الآية : ١٣ من سورة الممتحنة .

(٣) من الآية : ١٣٦ من سورة الأعراف ، ومن الآية : ٧٩ من سورة الحجر ، ومن الآية : ٢٥ من سورة الزخرف .

الغضب بالغضب ، وعن نتيجة الانتقام بالانتقام . فكذلك عبر عن نتيجة النفخ بالنفخ ، وإن لم يكن على صورة النفخ .

فقيل له : فما السبب الذى به اشتعل نور الروح فى فتيلة النطفة ؟

فقال : هو صفة فى الفاعل ، وصفة فى القابل ، أما صفة الفاعل ، فالجود الإلهى الذى هو ينبوع الوجود ، وهو فياض بذاته على كل ماله قبول الوجود حقيقة وجودها على كل حقيقة . ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة . ومثالها : فيضان نور الشمس ، على كل قابل للاستنارة ، وهى المتلونات ، دون الهواء الذى لا لون له .

وأما صفة القابل ، فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية كما قال : « سَوَّيْتُهُ » .. ومثال صفة القابل : صقالة الحديد . فإن المرآة التى ستر الصدأ وجهها لاتقبل الصورة ، وإن كانت محاذية للصورة .

وإذا اشتغل الصيقل بتصقيلها ، فكما حصلت الصقالة حدثت فيها الصورة من ذى الصورة المحاذية لها .

فكذلك إذا حصل الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح من خالق الروح ، من غير تغير فى الخالق . بل إنما حدث الروح الآن لا قبله لتغير المحل ؛ لحصول الاستواء الآن لا قبله .

كما أن الصورة فاضت من ذى الصورة على المرآة فى حكم الوهم ، من غير تغير حدث فى الصورة ، ولكن كان لا يحصل من قبل ، لا لأن الصورة غير مهيأة لأن ينطبع فى المرآة ، لكن لأن المرآة لم تكن صقيلة قابلة .

فقيل : فما الفيض ؟

فقال رحمه الله : لا ينبغى أن تفهم من الفيض ماتفهم من فيضان الماء من الإناء على اليد . فإن ذلك عبارة عن انفصال جزء مما فى الإناء ، واتصاله باليد . بل افهم منه ماتفهمه من فيضان نور الشمس على الحائط . لقد غلط قوم فى نور الشمس أيضاً ؛ فظنوا أنه ينفصل شعاع من جرم الشمس ، ويتصل بالحائط ، ويبسط عليه وهو خطأ . بل إن نور الشمس سبب لحدوث شىء يناسبه فى النورية ، وإن كان النور أضعف منه فى الحائط المتلون ، كفيضان الصورة على المرآة من ذى الصورة ، لا بمعنى انفصال جزء من صورة الإنسان ، بل صورة الإنسان سبب لحدوث صورة تماثلها فى المرآة القابلة لمحاذاة الصورة . وليس فيه انفصال واتصال إلا السببية المجردة ، فكذلك الجود الإلهى ، سبب لحدوث أنوار الوجود فى كل ماهية قابلة للوجود ، فيعبر عنه بالفيض ..

الفصل الثـالث :

قيل له : قد ذكرت التسوية والنفخ . فما الروح ؟ وما حقيقته ؟ وهل هو حالٌّ فى البدن حلول الماء فى الإناء ، أو حلول العرض فى الجوهر [٤] ؟ أو هو جوهر قائم بنفسه ؟ فإن كان جوهراً متحيزاً أو غير متحيز ، فإن كان متحيزاً فما مكانه : القلب ؟ أو الدماغ ؟ أو موضع آخر ؟. وإن لم يكن متحيزاً فكيف يكون جوهراً غير متحيز ؟...

فقال – قدس الله روحه – : هذا سؤال عن سر الروح الذى لم يؤذن لرسول الله ﷺ فى كشفه لمن ليس أهلاً له . فإن كنت من أهله فاسمع . واعلم : أن الروح ليس بجسم يحل

---

٤ ــ **الجوهر** : هو ما كان جرمه يشغل فراغا بحيث يمتنع أن يحل غيره من حيث حل . وهو معنى « المتميز بذاته » وذلك كأفراد الإنسان . لا كالعلم واللون . إذ هما لايتحيزان بذاتهما ، وإنما يتحيزان بالتبع ، لأنهما يقومان بالجوهر .

فإن كان الجوهر دقيقا بحيث انتهى فى الدقة إلى أنه لا يقبل الانقسام بوجه – أى : لا طولا ، ولا عرضا ، ولا عمقاً – فهو المسمى بالجوهر الفرد . وإن كان يقبل الانقسام ، أى : طولا فقط أو طولاً وعرضا فقط ، أو طولا وعرضا وعمقاً – فهو المسمى بالجسم ، أى : أن الجسم هو الهيئة الاجتماعية المؤلفة من الجواهر الفردة .

البدن حلول الماء فى الإناء ، ولا هو عرض[٥] يحل فى القلب والدماغ حلول السواد فى الأسود ، والعلم فى العالم . بل هو جوهر ، وليس بعرض لأنه يعرف نفسه ، وخالقه ، ويدرك المعقولات . والعرض لايتصف بهذه الصفات . ولا هو جسم ؛ لأن الجسم قابل للقسمة ، والروح لاينقسم ؛ لأنه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه علم بالشيء ، وبجزء آخر جهل بذلك الشيء الواحد بعينه .. فيكون فى حالة واحدة عالماً بالشيء وجاهلاً به ، وهو محال . والعلم والجهل بشيء واحد فى شخصين غير محال ، فدل أنه واحد لاينقسم ، وهو باتفاق العقلاء ليس جزءاً لا يتجزأ ، أى : شيء لاينقسم ؛ إذ لفظ الجزء غير لائق به ؛ لأن الجزء إضافة إلى الكل ، ولا كلَّ هٰهنا ، ولا جزء إلا أن يراد به مايريده القايل بقوله : الواحد جزء من العشرة ، فإذا أخذت جميع الموجودات ، أو جميع مابه قوام الإنسان فى كونه إنساناً كان الروح داخلاً من جملتها . فإذا فهمت أنه شيء لا ينقسم . فلا يخلو :

---

٥ ـــ **والعرض** : هو مالا يشغل فراغاً ، ولا له قيام بنفسه ، وإنما يكون وجود العرض تابعاً لوجود الجوهر ، وذلك كالعلم الذى يقوم بالجوهر . وكالحركة أو السكون . فإنها لا تشغل فراغاً بل الفراغ الذى يشغله الجوهر قبل اتصافه بها . هو الفراغ الذى يشغله مع اتصافه بها من غير زيادة .

« راجع الدكتور عبد العزيز سيف النصر : **فلسفة علم الكلام** ص ٧ الأولى ١٤٠٤ هـ »

إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز . باطل أن يكون متحيزا ؛ إذ كل متحيز منقسم . والجزء الذى لا يتجزأ باطل بأدلة واضحة : هندسية ، وعقلية ، وأقربها أنه لو فرض جوهر من جوهرين لكان كل واحد من الطرفين ملقى من الوسط غير مايلقى الآخر . فيجوز أن يقوم بالوجه الذى يلقاه هذا الطرف علم ، وبالوجه الآخر جهل ، فيكون عالماً جاهلاً فى حالة واحدة ، بشىء واحد : محال . وكيف لا ؟ ولو فرض بسيط مسطح من أجزاء لايتجزأ ، لكان الوجه الذى يحاذينا ونراه غير الوجه الذى لانراه . فإن الواحد لايكون مرئيّاً وغير مرئى فى حالة واحدة . ولكانت الشمس إذا حاذت أحد وجهيه استنار بها ذلك الوجه ، دون الوجه الآخر .. فإذا ثبت أنه لاينقسم ، وأنه لايتحيز ، ثبت أنه قائم بنفسه ، وغير متحيز أصلاً .

الفصـــل الرابـــع

قيل له : فما حقيقة هذه الحقيقة ؟ وما صفة هذا الجوهر ؟ وما وجه تعلقه بالبدن ؟ أهو داخل فيه أو خارج منه ومتصل به ، أو منفصل عنه ؟؟ ..

فقال – رحمه الله – : لا هو داخل ، ولا هو خارج ، ولا هو متصل ، ولا هو منفصل . لأن مصحح الاتصاف بالاتصال والانفصال : الجسمية والتحيز ، وقد انتفى عنه ، فانفات عن الضدين ، كما أن الجماد لا هو عالم ، ولا هو جاهل ؛ لأن مصحح العلم والجهل : الحياة ، فإذا انتفت انتفى الضدان .

قيل : فهل هو فى جهة ؟ .

قال : هو مبرأ عن الحلول فى المَحَالِّ ، والاتصال بالأجسام من الاختصاص بالجهات ؛ فإن كلَّ ذلك صفات الأجسام وأعراضها وهو ليس بجسم ولا عرض فى جسم ، بل هو مبرأ عن هذه العوارض .

فقيل له : لم منع الرسول ﷺ من إفشاء هذا السر ، وكشف حقيقة الروح ؟.

فقال – رحمه الله –: لأن الأفهام لاتحتمله ؛ لأن الناس قسمان : عوام وخواص . أما من غلب على طبعه العامية ، فهذا لايقبله ، ولا يصدق به ، فى وصفه الله – تعالى – فكيف يصدق به فى حق روح الإنسان ؟! ولهذا أنكرت الكرامية والحنبلية .. ومن كانت العامية أغلب عليه ذلك ، وجعل الإله جسماً إذا لم يعقل موجوداً إلا متجسماً مشاراً إليه ، ومن ترقى عن العامية قليلاً ، نفى الجسمية وأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة ، فأثبتوا موجوداً لا فى جهة ...

فقيل له : فلم لا يجوز كشف هذا السر مع هؤلاء ؟

فقال : لأنهم أحالوا هذه الصفة لغير الله – تعالى – فإذا ذكرت معهم كفروك . وقالوا : إنك تصف نفسك بما هو صفة الإله على الخصوص ، فكأنك تدعى الإلهية لنفسك .

فقيل له : فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله – تعالى – ولغير الله أيضاً ؟

فقال : لأنهم قالوا : كما يستحيل فى ذوات المكان أن يجتمع اثنان فى مكان واحد ، يستحيل أن يجتمعا أيضاً فى لا مكان ؛

لأنه إنما استحال اجتماع جسمين فى مكان واحد ، لأنه لو اجتمعا لم يتميزا أحدهما عن الآخر . فكذلك لو وجد اثنان كل واحد ليس فى مكان ، فلم يحصل التمييز والفرقان ، ولهذا أيضاً قالوا : لا يجتمع سوادان فى محل واحد ، حتى قيل : المثلان يتضادان .

فقيل له : فهذا إشكال قوى فما جوابه ؟.

فقال : إنهم اخطأوا حيث ظنوا أن التمييز لا يحصل إلا بالمكان ، بل يحصل التمييز بثلاثة أمور :

أحدها : بالمكان لجسمين فى مكانين .

والثانى : بالزمان كسوادين فى جوهر واحد فى زمانين .

والثالث : بالحد والحقيقة كالأعراض المختلفة فى محل واحد ، مثل اللون ، والطعم ، والبرودة ، والرطوبة ، فى جسم واحد . فإن المحل لها واحد ، والزمان واحد . لكن هذه مختلفة الذوات بحدودها وحقائقها ، فيتميز الطعم عن اللون بذاته ، لا بمكان وزمان ، ويتميز العلم عن الإرادة والقدرة بذاته ، وإن كان الجميع كشىء واحد ، فإذا كان يتصور أعراض مختلفة الحقائق فى محل واحد ، فأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها فى غير مكان أولى .

فقيل : ههٰنا دليل آخر على إحالة ماذكرتموه أظهر من

طلب التفرقة ، وهو أن هذا تشبيه ؛ لأنه إثبات لأخص وصف الله – تعالى – فى حق الروح .

فقال : هيهات ، فإن قولنا : الإنسان حى ، عالم ، سميع ، بصير ، قادر ، متكلم . والله – تعالى – كذلك ، ليس فيه تشبيه ؛ لأنه ليس ذلك أخص وصف الإله ، بل أخص وصفه . أنه قيوم ، أى : هو قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم به ، وأنه موجود بذاته لا بغيره ، وكل ماسواه موجود به لا بذاته ، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدم ، وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية . والوجود لله – تعالى – ذاتى ليس بمستعار . وهذه الحقيقة – أعنى القيومية – ليس إلا لله تعالى .

قيل له : ذكرت معنى التسوية ، والنفخ ، والروح . ولم تذكر معنى النسبة فى الروح ، وأنه لم قال : « من روحى » ؟ ولم نسبه إلى نفسه ؟ فإن كان لأن وجوده به ، فجميع الأشياء كذلك ، ولم نسب البشر إلى الطين ؛ فقال : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[6] ثم قال : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[7]. وإن كان معناه أنه جزء من الله – تعالى –

٦ – سورة ص : الآية رقم ٧١ .

٧ – سورة الحجر : الآية رقم ٢٩ . وسورة ص : الآية رقم ٧٢ .

فاض على القالب كما يفيض المعطى المال على السائل فيقول : أفضت عليه من مالى . فهذا تجزئة لذات الله تعالى .

وقد قال : أبطلتم هذا ، وذكرتم أن إفاضته ليس بمعنى انفصال جزء .

فقال – رحمه الله – : هذا كقول الشمس لو نطقت به ، وقالت : أفضت على الشمس من نورى ، فيكون صدقا ، ويكون معنى النسبة : أن النور الحاصل من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه ، وإن كان فى غاية الضعف بالإضافة إليه . وقد عرفت أن الروح منزه عن الجهة والمكان ، وفى قوته العلم بجميع الأشياء والاطلاع عليها ، وهذه مضاهاة ومناسبة . فلذلك خصص بالإضافة ، وهذه المضاهاة ليست للجسمانيات أصلاً .

فقيل له : فما معنى قوله – تعالى – : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[8] وما معنى عالم الأمر ، وعالم الخلق ؟ .

فقال : كل ما يقع عليه مساحة وتقدير – وهى الأجسام وعوارضها – يقال : إنه من عالم الخلق . والخلق ههنا بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث . يقال : خلق الشىء ، أى : قدره .. قال الشاعر :

---

٨ – سورة الإسراء : الآية رقم ٨٥ .

وبعض الخلق يخلق ثم يفـرى

أى : يقدر الأديم ، ثم يقطع . ومالا كمية له ، ولاتقدير . فيقال : إنه أمر ربانى . وذلك للمضاهاة التى ذكرناها . وكل مامن هذا الجنس من أرواح البشر ، وأرواح الملائكة ، يقال : إنه من عالم الأمر . فعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس ، والخيال ، والجهة ، والمكان ، والتحيز . وهى مالا يدخل تحت المساحة ، والتقدير ، لانتفاء الكمية عنه .

فقيل له : أتوهم أن الروح ليس مخلوقا فهو قديم ؟

فقال : قد توهم هذا جماعة ، وهو جهل . بل نقول : الروح غير مخلوق ، يعنى أنه غير مقدر بكمية ؛ فإنه لا ينقسم ، ولايتحيز ، لكنه مخلوق ، بمعنى أنه حادث[9] ، وليس بقديم . وبرهان حدوثه طويل ومقدماته كثيرة . ولكن الحق : أن الأرواح البشرية حدثت عند استعداد النطفة للقبول ، كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة . وإن كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقالة .

---

(٩) يقول ابن القيم فى المسألة السابعة عشرة

وهى : هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟ من كتابه (الروح) :

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ؟ وقد أخبر –

سبحانه – أنه نفخ فى ادم من روحه ، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ وماحقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بنى آدم . وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين ، والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدَبَّرةٌ . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق ، وكل ماسواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة ، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة ، واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله – تعالى – أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده ، وتوقف آخرون فقالوا : لانقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده ، فقال : أما بعد فإن سائلا سألنى عن الروح التى جعلها الله – سبحانه – قوام نفس الخلق وأبدانهم ، وذكر أن أقواما تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله ، قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم ، وأبين مايخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والأثر ، وأوضح خطأ المتكلم فى الروح بغير علم ، وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه . فنقول – وبالله التوفيق – : إن الناس اختلفوا فى معرفة الأرواح ومحلها من النفس :

(فقال) بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبى ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » والجنود المجندة لاتكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم : الأرواح من أمر الله ، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ .

(وقال) بعضهم : الأرواح نور من أنوار الله – تعالى – وحياة من حياته ، واحتجت بقول النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – : « **إن الله خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره** » ثم ذكر الخلاف فى الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب مع الأجساد فى البرزخ وفى مستقرها بعد الموت ؟ وهل هى النفس أو غيرها .

(وقال) محمد بن نصر المروزى فى كتابه : تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض فى روح آدم ماتأولته النصارى فى روح عيسى ، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار فى المؤمن ، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً ؛ لأن عيسى عندهم روح من الله صار فى مريم ، فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض : إن روح آدم مثل ذلك ، إنه غير مخلوق ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق ، كما تأول من قال : إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا : ثم صاروا بعد آدم فى الوصى بعده ، ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن صار فى على ثم فى الحسن والحسين ، ثم فى كل وصى وإمام فبه يعلم الإمام كل شىء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه ، كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّافِى السَّمَٰوٰاتِ وَمَافِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال فى (كتاب اللفظ) : لما تكلم على الروح قال : النسم : الأرواح . قال : وأجمع الناس على أن الله – تعالى – هو فالق الحبة وبارىء النسمة ، أى : خالق الروح . وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به فى هذه المسألة : سألت – رحمك الله – عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لايشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم فى هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة ، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزى وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجورى ، والقاضى أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى ابن مريم فكيف بروح غيره ؟! كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه فى مجلسه فى الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم إن الجهمى ادعى أمراً فقال : أنا أجد آية فى كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق : قول الله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ وعيسى مخلوق ، قلنا له : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ، إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لاتجرى على القرآن لأنا نسميه مولوداً وطفلا وصبيًّا

وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول فى القرآن مانقول فى عيسى ، **فهل سمعتم الله يقول فى القرآن ماقال فى عيسى** ؟ ولكن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن ، فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو كن ، ولكن كان بكن . فكن من الله قول ، وليس كن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة . وقالت النصارى : عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب ، قلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة ، وإنما الكلمة قول الله – تعالى– : كن . وقوله : ﴿ **وروح منه** ﴾ يقول : من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه** ﴾ يقول : من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها ، كما يقال : عبد الله ، وسماء الله ، وأرض الله ، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح ؟! وقد أضاف الله إليه الروح الذى أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً** ﴾ فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

والذى يدل على خلقها وجوه :

(**الوجه الأول**) : قول الله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شىء** ﴾ فهذا اللفظ عام لاتخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفاته ، فإنها داخلة فى مسمى اسمه ، فالله – سبحانه – هو الإله الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه ليس داخلا فى الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها ، فهو – سبحانه – بذاته وصفاته الخالق وماسواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته ، وإنما هى مصنوع من مصنوعاته ، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(**الوجه الثانى**) : قوله تعالى لزكريا : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾ وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط ؛ فإن البدن وحده لايفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(**الوجه الثالث**) : قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وماتعملون** ﴾ .

(**الوجه الرابع**) : قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور ، وإما أن يكون واقعا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح فى خلق الأرواح .

(**الوجه الخامس**) : النصوص الدالة على أنه – سبحانه – ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء ، وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا ، فالأرواح مربوبة له مملوكة ، كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(**الوجه السادس**) : أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

الثانـي : قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة ، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانا بها .

الثالـث : أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

الرابـع : أنها منعم عليها مرحومة ، ومغضوب عليها وضالة شقية ، وهذا شأن المربوب والمملوك ، لا شأن القديم غير المخلوق .

(**الوجه السابع**) : النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته ، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه ، بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها فى الأحكام ، وهى التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

(**الوجه الثامن**) : قوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

(**الوجه التاسع**) النصوص الدالة على أن الله – سبحانه – كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا : يارسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : **كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء** ، وكتب فى الذكر كل شيء – فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، بل هو الأول وحده لايشاركه غيره فى أوليته بوجه .

(**الوجه العاشر**) النصوص الدالة على خلق الملائكة ، وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها ، وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه ، فإذا كان الملك الذى يحدث الروح فى جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخه قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه ؛ كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه ، وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله - سبحانه - إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة ، فتكون النفخة هى سبب حصول الروح وحدوثها له ، كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ، ومادة الجسم من صب الماء فى الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية ، فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

(**الوجه الحادى عشر**) حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - الذى فى صحيح البخارى وغيره عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسى وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلى بن أبى طالب وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم .

(**الوجه الثانى عشر**) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال ، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب ، قال الله - تعالى - : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ والأنفس هاهنا هى الأرواح قطعاً . وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : سرنا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى سفر ذات ليلة فقلنا : يارسول الله لو عرست بنا ، فقال : إنى أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يارسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد طلع جانب الشمس ، فقال : يا بلال أين ماقلت لنا ؟ فقال : والذى بعثك بالحق ماألقيت على نومة مثلها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: « **إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء** » فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها ، وفى منامها التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله - سبحانه - وهى التى يجلس الملك

عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها ، وتوقف بين يدى ربها فيقضى فيها أمره ، ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعَّم ، وهى التى تجعل فى أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهى التى تعرض على النار غدوا وعشيًّا ، وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى ، وهى الأمارة بالسوء ، وهى اللوامة ، وهى المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن ، وما ذاك إلا سمات مخلوق مُبْدَع ، وصفات منشأ مخترع ، وأحكام مربوب مدبَّر مصرَّف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يقول عند نومه : « **اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين** » وهو تعالى بارىء النفوس كما هو بارىء الأجساد ، قال – تعالى –: ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ قيل : من قبل أن نبرأ المصيبة ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى ؛ لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل : يرجع إلى الثلاثة ، أى : من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ، ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهى لاتملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ماأعطاها ، وتتقى من الشر إلا ماوقاها ، ولا تهتدى إلى شىء من صالح دنياها وأخراها إلا بهداه ، ولا تصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ، فأخبر – سبحانه – أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى ، خلافاً لمن يقول : إنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول : إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هى التى تخلق أفعالها ، وهما قولان لأهل الضلال والغى .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكمالها ، وهذا من أبطل الباطل . فإن فقرها إليه – سبحانه – فى وجودها وكمالها وصلاحها هو من لوازم ذاتها ليس معللا بعلة فإنه أمر ذاتى لها ، كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللا بعلة فهو – سبحانه – الغنى بالذات ، وهى الفقيرة إليه بالذات ، فلا يشاركه – سبحانه – فى غناه مشارك كما لا يشاركه فى قدمه وربوبيته وملكه التام وكماله المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان .

وإيجاز هذا البرهان أن الأرواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة ، وإما واحداً ، وباطل وحدتها وكثرتها ، فباطل وجودها . وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان ؛ لعلمنا ضرورة بأن مايعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو . ولو كان الجوهر العاقل منهما واحداً لاستحال اجتماع المتضادين فيه ، كما يستحيل فى زيد وحده .

قال – تعالى – : ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد** ﴾ وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ، ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لايشركه فيه غيره ، وقد أرشد الله – سبحانه – عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم ٭ وأنتم حينئذ تنظرون ٭ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون ٭ فلولا إن كنتم غير مدينين ٭ ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ أى : فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع ، أو لاتعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

وكل ما تقدم ذكره فى هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ، ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ، ومن قصر فهمه فى كتاب الله وسنة رسوله ، فأتى من سوء الفهم لا من النص ، تكلموا فى أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمرا تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه ؟! بل تشهد به السموات والأرض والخليقة : فلله – سبحانه – فى كل ماسواه آية – بل آيات – تدل على أنه مخلوق مربوب ، وأنه خالقه وربه وبارئه ومليكه ، ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

ونعنى بالروح الجوهر العاقل ، ومحال كثرتها ؛ لأن الواحد إنما لا يستحيل أن يثنى ، وأن ينقسم ، إذا كان ذا مقدار كالأجسام . فالجسم ينقسم لأنه ذو مقدار ، فله بعض ، فيتبعض . أما مالا بعض له ، ولا مقدار فكيف يقسم ؟.

أما تقدير كثرتها بعد التعلق بالبدن محال ؛ لأنها : إما أن تكون متماثلة ، وإما مختلفة . وكل ذلك محال ، وإنما استحال التماثل ؛ لأن وجود المثلين محال فى الأصل ، ولهذا يستحيل وجود سوادين فى محل ، وجسمين فى مكان واحد . لأن الاثنينية تستدعى مغايرة ، ولا مغايرة ههنا . وسوادان فى محلين جائز ؛ لأن هذا يفارق ذلك فى المحل إذا اختص بمحل لايختص به الآخر . وكذلك يجوز فى محل واحد فى زمانين ؛ إذ لهذا وصف ليس للآخر . وهو الاقتران بهذا الزمان الخاص .

فليس فى الوجود مثلان مطلقا بل بالإضافة ، كقولنا : زيد وعمرو مثلان فى الإنسانية والجسمية ، وسواد الحبر والغراب مثلان فى السوادية ومحال تغايرها ؛ لأن التغاير نوعان :

أحدهما : باختلاف النوع والماهية : كتغاير الماء والنار ، وتغاير السواد والقلم .

والثانى : بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية : كتغاير الماء الحار والماء البارد ؛ فإن كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع ،

فمحال ؛ لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد ، والحقيقة ، وهى نوع واحد . وإن كانت متغايرة بالعوارض فمحال ؛ لأن الحقيقة الواحدة إنما يتغاير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام ، منسوبة إليها بنوع . إذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ، ولو فى القرب من السماء والبعد منه مثلا .

أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف ، وهذا ربما يحتاج بحقيقة إلى مزيد تقرير . لكن هذا القدر تنبيه عليه .

فقيل له : كيف يكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجساد(١٠) ولا تعلق لها بالأجسام . فكيف تكثرت وتغايرت ؟؟

فقال : لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة فى العلم ، والجهل ، والصفاء ، والكدورة ، وحسن الأخلاق وقبحها . فبقيت متغايرة ، فعقل تكثرها ، بخلاف ماقبل الأجساد فإنه لاسبب لتغايرها .

---

(١٠) يقول ابن القيم :

المسألة الخامسة من كتاب الروح :

وهى أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأى شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاق ؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذى كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها ؟ .

هذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها ، ولايظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل

ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص ، فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه ، وكذلك من يقول : هى عرض من أعراض البدن ، فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها ، فلا تميز لها بعد الموت ، بل لا وجود لها على أصولهم بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحى ، ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل ، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجىء وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها فى كتابنا الكبير فى معرفة الروح والنفس ، وبينا بطلان ماخالف هذا القول من وجوه كثيرة ، وإن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله – سبحانه وتعالى – بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال – تعالى –: ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم** ﴾ وقال – تعالى –: ﴿ **يآ أيتها النفس المطمئنة ۝ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ۝ فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد ، وقال – تعالى –: ﴿ **ونفس وما سواها ۝ فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ فأخبر أنه سوى النفس ، كما أخبر أنه سوى البدن فى قوله : ﴿ **الذى خلقك فسواك فعدلك** ﴾ فهو – سبحانه – سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالقالب لنفسه ، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس ، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها ، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها ، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها ، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه ، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن ، ولهذا يقال لها عند المفارقة : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب النفس ، واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث .

وقال الله – تعالى –: ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ فوصفها بالتوفى والإمساك والإرسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية ، وقد أخبر النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت . وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والأعراض لا ريح لها ولاتمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله -- عز وجل -- فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ، ثم ترد إلى الأرض ، وإن روح الكافر تطرح طرحا وأنها تدخل مع البدن فى قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبى – صلى الله عليه وآله وسلم —: بأن نسمة المؤمن وهى روحه طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب فى البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر – سبحانه – عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوّاً وعشيّاً قبل يوم القيامة ، وقد أخبر – سبحانه – عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ورزقها ، وإلا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – هذه الحياة بأن أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ فعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى .

(وصح) عنه – صلى الله عليه وآله وسلم – « **أن أرواح الشهداء فى طير خضر تَعْلُقُ من ثمر الجنة** » وتعلق – بضم اللام – أى : تأكل العلقة .

(وقال) ابن عباس : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « **لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولاينكلوا عن الحرب ، فقال الله– عز وجل– : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله– تعالى– على رسوله– صلى الله عليه وآله وسلم – ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾** الآيات . رواه الإمام أحمد .

وهذا صريح فى أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها ، وسيأتى مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشتبه كثيراً ، وأما الأرواح فقل ماتشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون فى علمنا أظهر تميز ، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم مايختص به أحدهم من الآخر ، بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز ؟ وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين فى الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما فى غاية الظهور .

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً ؟ قلَّ أن ترى بدنا قبيحاً وشكلا شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه ، وقل أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها ، ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطىء ذلك .

(ويحكى) عن الشافعى — رحمه الله — فى ذلك عجائب .

وقل أن ترى شكلا حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، هذا مالم يعارض ذلك مايوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم ، وكذلك الجن ، فتميز الأرواح البشرية أولى .

الفصل الخـامس :

فقيل له : مامعنى قوله – صلى الله عليه وآله وسلم – :
« **إن الله – تعالى – خلق آدم على صورة الرحمن** »[11] ؟ .

فقال : الصورة اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الأشكال ووضع بعضها من بعض ، واختلاف تركيبها وهى الصورة المحسوسة . وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست محسوسة . وللمعانى ترتيب أيضاً وتركيب وتناسب . ويسمى ذلك صورة ، فيقال : صورة المسألة كذا ، وصورة الواقعة ، وصورة العلوم العقلية كذا .

فالمراد بالصورة ههُنا هو الصورة المعنوية ، والإشارة به إلى المضاهاة التى ذكرناها ، ويرجع ذلك إلى الذات ، والصفات ، والأفعال ..

---

(١١) ورد الحديث فى كتاب (عون البارى لحل أدلة صحيح البخارى) شرح التجريد الصحيح .
للإمام القنوجى البخارى جـ ٤ ص ٥٧٠ ط إحياء التراث بقطر
والإضافة فى الحديث إضافة تشريف وتكريم ؛ لأن الله خلقه على صورة لم يشاكلها شىء من الصور فى الكمال والجمال » .

وحقيقة ذات الروح ، أنه قائم بنفسه ، ليس بعرض ، ولا جسم ، ولا جوهر متحيز ، ولا يحل المكان والجهة ، ولا هو متصل بالبدن ، والعالم ، ولا منفصل ، ولا هو داخل فى أجسام العالم ، ولا خارج وهذا كله صفات ذات الله – تعالى – وأما الصفات فقد خلق حيا ، عالماً ، قادراً ، فريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً . والله – تعالى – كذلك . وأما الأفعال فمبدأ فعل الآدمى : إرادة يظهر أثرها أولاً فى القلب ، فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب إلى الدماغ ، ثم يسرى منه أثر فى الأعصاب الخارجة من الدماغ ، ومن الأعصاب إلى الأوتار ، والرباطات المتعلقة بالعضل ، فتنجذب الأوتار ، فيتحرك به الأصبع ، فيتحرك بالأصابع القلم ، وبالقلم المداد مثلا . يحدث منه صورة ما يريد كتابته على وجه القرطاس على الوجه المتصور فى خزانة التخيل فإنه مالم يتصور فى الخيال صورة المكتوب أولا لا يمكن إحداثه على البياض ثانياً .

ومن استقرأ أفعال الله – تعالى – وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض ، بواسطة تحريك السموات والكواكب . وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السموات ، على أن يتصرف الآدمى فى عالمه – أعنى بدنه – فيشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر ، وهو مثله ، وانكشف له أن نسبة

شكل القلب إلى تصرفه نسبة العرش ، ونسبة الدماغ نسبة الكرسى ، والحواس له كالملائكة الذين يطيعون طبعا ولا يستطيعون خلافا .

والأعصاب والأعضاء كالسموات ، والقدرة فى الأصبع كالطبيعة ، التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتركيب والتفرقة ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ ، مهما اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله : « إن الله – تعالى – خلق آدم على صورته » ومعرفة ترتيب أفعال الله – تعالى – معرفة غمضة ، يحتاج فيها إلى تحصيل علوم كثيرة . وماذكرناه إشارة إلى جملته .



الفصـــل الســـادس

فقيل له : مامعنى قوله : « من عرف نفسه عرف ربه »[١٢] .؟.

فقال : إن الأشياء تعرف بالأمثلة المناسبة ، ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقى ، من معرفة نفسه إلى معرفة الخالق .

فلولا أن الله – تعالى – جمع فى الآدمى ماهو مثال جملة العالم ، حتى كأنه نسخة مختصرة من العالم ، وكأنه رب فى عالمه متصرف ، لما عرف العالم . والتصرف ، والربوبية ، والعلم ، والقدرة ، وسائر الصفات الإلهية ، فصارت النفس بمضاهاتها وموازنتها مرقاة إلى معرفة خالق النفس .

وفى استكمال المعرفة بالمسألة التى قبل هذه مايكشف عن وجه هذه المسألة .

---

(١٢) وجاء فى كتاب (**رحمه من الرحمن فى تفسير وإشارات القرآن**) للشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى : جمع الشيخ محمود الغراب : وقد قال – صلى الله عليه وسلم –: « **من عرف نفسه عرف ربه** » فينبغى للإنسان أن ينظر فى روحه كيف توجه إلى مدينة جسمه المزخرف ودخله . ليعاين ما أودع الحق فيه من الحكم والترتيب الأحسن . لأنه فى

أحسن تقويم ، فإذا شرعت فى هذا النظر فأمعن فيه ، ولا تترك زاوية من الإنسان حتى تدخلها وتعرف ما خزنت ؛ فإنها خزائن الحق ، فإنك تقف على علم عظيم . قال – تعالى – : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ . وقال – صلى الله عليه وسلم – : « **أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه** » فإن الإنسان من حيث تفصيله مفطور على العلم بالله . كسائر ما سوى الجن والإنس من المخلوقات . فما من شىء فى الإنسان من شعر ، وجلد ، ولحم ، وعصب ، ودم ، وروح ، ونفس ، وظفر ، وناب ، إلا وهو عالم بالله – تعالى – بالفطرة ، بالوحى الذى تجلى له فيه .

والإنسان من حيث مجموعيته وماالجمعيته من الحكم جاهل بالله حتى ينظر ويفكر ويرجع إلى نفسه ، فيعلم أن له صانعاً صنعه ، وخالقاً خلقه . فالإنسان من حيث تفصيله عالم بالله ، ومن حيث جملته جاهل بالله ، حتى يتعلم ، أى : يعلم بما فى تفصيله . وكل علم لا يكون حصوله عن كشف بعد فتح الباب يعطيه الجود الإلهى ويبديه ويوضحه ، فهو شعور لا علم ؛ لأنه حصل من خلف الباب والباب مغلق ، وليس الباب سواك ، فأنت بحكم معناك ومغناك ؛ وذلك هو غلق الباب .

فأنت تشعر أن خلف هذا الجسم والصورة الظاهرة معنى آخر لاتعلمه ، وإن شعرت به . فالصورة الظاهرة المصراع الواحد ، والنفس المصراع الآخر .

فإذا فتحت الباب تميز المصراع من المصراع . وبدا لك ما وراء الباب . فذلك هو العلم . فما رأيته إلا بالتفصيل . لأنك فصلت ما بين المصراعين . حتى تميز هذا فيك .

فإن كان الباب عبارة عن حق وخلق وهو أنت وربك فالتبس عليك الأمر ، فلم يتميز عينك من ربك . وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « **من عرف نفسه عرف ربه** » فالشعور مع غلق الباب ، والعلم مع فتح الباب .

فإذا رأيت العالم متهما لما يزعم أنه به عالم فليس بعالم وذلك هو الشعور .

وإن ارتفعت التهمة فيما علم فذلك هو العلم . ويعلم أنه قد فتح الباب له : وأن الجود قد أبرز له ماوراء الباب . وكثير من الناس يتخيل أن الشعور علم وليس كذلك . وإنما حظه الشعور من العلم أن تعلم أن خلف الباب أمراً ما على الجملة لا يعلم ماهو . « راجع آيات من الرحمن للشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى جمع فضيلة الشيخ محمود محمود الغراب جـ ٤ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ط دمشق ١٤١٠ هـ » .

الفصل السابع :

قيل له : إن كانت الأرواح حادثة مع الأجساد ، فما معنى قوله – عليه السلام – : « **خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفى عام** » . وقوله – عليه السلام – : « **أنا أول الأنبياء خلقا ، وآخرهم بعثا ، وكنت نبيا وآدم بين الماء والطين** »[13] ؟

فقال : شيء من هذا لايدل على قدم الروح بل يدل على حدوثه وكونه مخلوقاً . نعم ربما دل بظاهره على تقدم وجوده على الجسد وأمر الظواهر هين . فإن تأويلها ممكن ، والبرهان القاطع لا يدرأ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر ، كما فى ظواهر التشبيه ، فى حق الله تعالى .

---

(١٣) كتب السيرة والسنة تروى كثيراً من الآثار ، تشير إلى تشريف الله – تعالى – باصطفاء محمد – صلى الله عليه وسلم – وكونه أول الأنبياء خلقا . فقد روى ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً . قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: « **كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث** » (ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٤٩ ط صادر بيروت .) .

وقد يكون المراد بالخلق هنا التقدير دون الإيجاد ، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودا ، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير ، لاحقة فى الوجود » انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٩١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

أما قوله : « **خلق الله الأرواح قبل الأجساد** » : أراد بالأرواح : أرواح الملائكة ، والأجساد : أجساد العالم من العرش ، والكرسى ، والسموات ، والكواكب ، والنار ، والهواء ، والماء ، والأرض . ولما كانت أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة ، بالإضافة إلى جرم الأرض . وجرم الأرض أصغر من الشمس بكثير ، ثم لانسبة لجرم الشمس إلى فلكه ،

= وجاء عن العرباض بن سارية – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « **إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته** » رواه الإمام أحمد فى مسنده جـ٤ ص ١٢٧ . ورواه الحاكم فى المستدرك جـ٢ ص ٦٠٠ . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير جـ ١١ ص ٢٥٢ ورواه الهيثمى جـ٣ ص ١١٢ . ويقول الطيبى : والمعنى : كتبت خاتم الأنبياء فى الحال الذى آدم مطروح على الأرض ، حاصل فى أثناء تخلقه ، لما يفرغ من تصويره ، وإجراء الروح » الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٩٦ .

ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب – رحمه الله تعالى – : المقصود من هذا الحديث : أن نبوة النبى – صلى الله عليه وسلم – كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله – تعالى – ويخرجه إلى دار الدنيا حيا ، وأن ذلك كان مكتوبا فى أم الكتاب من قبل نفخ الروح فى آدم – صلى الله عليهما وسلم – . (انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٩٧) .

وفسر أم الكتاب باللوح المحفوظ فى قوله – تعالى –: ﴿ **يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ سورة الرعد ، الآية رقم : ٣٩ .

ولا ريب أن علم الله قديم ، لم يزل عالما بما يحدثه من خلقه ثم إن الله – تعالى – كتب ذلك فى كتاب عنده . قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال – تعالى – : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ . سورة الحديد ، الآية رقم : ٢٢ .

ويروى الإمام أحمد عن ميسرة – رضى الله عنه – قال : قلت : يارسول الله : متى كنت نبياً ؟ قال : « **وآدم بين الروح والجسد** » رواه أحمد والترمذى جـ٢ ص ٤٢٥ .

ولا لفلكه إلى السموات التى فوقه . ثم كل ذلك اتسع له الكرسى ؛ إذ وسع كرسيه السموات والأرض[١٤] . والكرسى صغير بالإضافة إلى العرش . فإذا تفكرت فى جميع ذلك استحقرت أجساد الآدميين . ولم تفهمها من مطلق لفظ الأجساد . فكذلك يعلم ويتحقق أن الأرواح البشرية بالإضافة إلى أرواح الملائكة كأجسادهم بالإضافة إلى أجساد العالم .

ويقول الإمام أحمد فى رواية منها : وبعضهم يروون : « متى كتبت » من الكتابة ، قال : « **كتبت نبيا وآدم بين الروح والجسد** » . فتحمل هذه الرواية مع حديث العرباض السابق على وجوب نبوته – صلى الله عليه وسلم – وثبوتها وظهورها فى الخارج . فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب ، إما تشريعا كقوله – تعالى – : ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ البقرة ، الآية رقم : ١٨٣ . أو قدرا كقوله – تعالى – : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ سورة المجادلة ، الآية رقم : ٢١ .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قالوا : يارسول الله : متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « **وآدم بين الروح والجسد** » الترمذى والحاكم والطبرانى والبيهقى .

وروى ابن سعد عن الشعبى قال : قال رجل : يارسول الله ؛ متى استنبئت ؟ قال : « **وآدم بين الروح والجسد ، حين أخذ منى الميثاق** » . **رواه الدارمى فى سننه : المقدمة ص ٣** .

(١٤) يشير بهذا إلى قوله – تعالى – فى سورة البقرة . ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموٰات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم** ﴾ .

ولو انفتح لك باب معرفة الأرواح الملكية لرأيت الأرواح البشرية كسراج اقتبست من نار عظيمة ، طبق العالم . وتلك النار العظيمة هى الروح الأخير من أرواح الملائكة .

ولأرواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبته ، ولا يجتمع فى مرتبة واحدة اثنان ، بخلاف الأرواح البشرية المتكثرة مع اتحاد النوع والمرتبة .

أما الملائكة : فكل واحد نوع بذاته . وهو كل ذلك النوع وإليه الإشارة بقوله – تعالى – : ﴿**وإنَّا لَصَـٰدِقُونَ**﴾[15]. وبقوله – عليه السلام – : « **إن الراكع منهم لايسجد ، والقائم لايركع ، وإنه مامن واحد إلا وله مقام معلوم** » . فلا تفهمن إذاً من الأرواح والأجساد المطلقة إلا أرواح الملائكة ، وأجساد العالم .

وأما قوله – عليه السلام – : « **أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثا** »[16] فالخلق ههٰنا هو التقدير دون الإيجاد ؛ فإنه

---

(١٥) سورة يوسف ، الآية رقم : ٨٢ .

وسورة النمل : الآية رقم : ٤٩ .

(١٦) انظر ماسبق من بيان اصطفاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وما ورد فى ذلك .

قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً مخلوقاً ، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود . وهو معنى قولهم : أول الفكر آخر العمل[17] .

بيانه : أن المهندس المقدر للدار ، أول مايتمثل صورته فى تقديره وهى دار كاملة ، وآخر ما يوجد من إثراء أعماله هى الدار الكاملة ، والدار الكاملة أول الأشياء فى حقه تقديراً ، وآخره وجوداً ؛ لأن ماقبله من ضرب النبات ، وبناء الحيطان ، وتركيب الجذوع ، وسيلة إلى غاية وكمال ، وهى الدار . فالغاية هى الدار . ولأجله تقدم الآلات والأعمال .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن مقصود فطرة الآدميين : إدراكهم لسعادة القرب من الحضرة الإلهية . ولم يكن ذلك إلا بتعريف الأنبياء ، فكانت النبوة مقصودة بالإيجاد ، والمقصود كمالها وغايتها ، لا أولها . وإنما تكمل بحسب سنة الله – تعالى – بالتدريج ، كما تكمل عمارة الدار بالتدريج . فتمهد أصل النبوة بآدم – عليه السلام – ولم يزل ينمو ويكمل ، حتى بلغ الكمال بمحمد ﷺ.

وكان المقصود كمال النبوة وغايتها ، وتمهيد أوائلها وسيلة إليها ، كتأسيس البناء ، وتمهيد أصول الحيطان ، فإنه وسيلة

(١٧) انظر الصالحى الشامى : **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** جـ١ ص ٩١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

إلى كمال صورة الدار . ولهذا السر كان خاتم النبيين . فإن الزيادة على الكمال نقصان .

وأكمل شكل الآلات الباطشة كف عليه خمسة أصابع ، فكما أن ذا الأصابع الأربعة ناقص ، فذو الأصابع الستة ناقص . لأن السادسة زيادة على الكفاية ، فهو نقصان بالحقيقة . وإن كان زيادة فى الصورة ، وإليه الإشارة بقوله – عليه السلام – : « **مثل النبوة مثل دار معمورة لم يبق فيها إلا موضع لبنة . كنت أنا تلك اللبنة** »[١٨] أو لفظ هذا معناه .

فإذا عرفت أن كونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور خلافه ، إذ بلغ به الغاية والكمال . والغاية : أول فى التقدير ، آخر فى الوجود .

وأما قوله – عليه السلام – : « **كنت نبيا وآدم بين الماء والطين** »[١٩] أيضاً إشارة إلى ماذكرناه ، وأنه كان نبيا فى التقدير قبل تمام خلقة آدم ؛ لأنه لم ينشأ خلق آدم إلا لينتزع

---

(١٨) يشير بهذا إلى ما رواه البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « **إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى . كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟! فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم النبيين** » . ابن حجر : فتح البارى جـ ٧ ص ٣٧٠ .

(١٩) راجع ماسبق من أحاديث فى اصطفاء النبى – صلى الله عليه وسلم –.

الصافى من ذريته ، ولا يزال يستصفى تدريجاً إلى أن يبلغ كمال الصفاء ، فيقبل الروح القدسى المحمدى . ولاتفهم هذه الحقيقة إلا بأن تعلم أن للدار – مثلا – وجودين : – وجود فى ذهن المهندس ودماغه ، حتى كأنه ينظر إلى صورة الدار ، – ووجود خارج الذهن فى الأعيان .

والوجود الذهنى سبب الوجود الخارج العينى ، فهو سابق لا محالة ، فكذلك تعلم أن الله – تعالى – يُقَدِّرُ أولاً ، ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً .

وإنما التقدير يرتسم فى اللوح المحفوظ ، كما يرتسم تقدير المهندس أولاً فى لوح أو قرطاس ، فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعاً من الوجود يكون هو سبباً للوجود الحقيقى . وكما أن هذه الصورة ترتسم فى لوح المهندس بواسطة القلم ، والقلم يجرى على وَفق العلم ، بل العلم مجراه . فكذلك تقدير صورة الأمور الإلٰهية ترتسم أولا فى اللوح المحفوظ . وإنما ينتقش اللوح من القلم ، والقلم يجرى على وفق العلم ، واللوح عبارة عن موجود قابل النقش .

الصور والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح المنتقش ؛ فإن حد القلم هو الناقش لصور المعلومات ، وحد اللوح هو المنتقش بتلك الصور . وليس من شرطهما أن يكونا قصبا أو خشبا بل ليس من شرطهما أن يكونا جسمين .

فالجسمية لاتدخل فى حد القلم وحقيقته ، بل روح القلمية واللوحية – ماذكرناه – والزايد عليه صورته لا معناه . فلا يبعد أن يكون قلم الله تعالى ، ولوحه ، لائقين بأصبعه ويده ، وكل ذلك على مايليق بذاته وإلٰهيته ، فيتقدس عن حقيقة الجسمية ، بل جملتها جواهر روحانية عالمة . بعضها متعلم كاللوح ، وبعضها معلم كالقلم . فإن الله – تعالى – عَلَّمَ بالقلم . فإذا فهمت نوعى الوجود . فقد كان نبيا قبل آدم ، بمعنى الوجود الأول التقديرى دون الوجود الثانى الحسى العينى .

والله أعـلم بالصـواب

الفهـــرس

صفحـة

رقم الإيداع
١٩٩١ / ٢٤٩٠
I.S.B.N 977 — 5083 — 28 — 1



الجمع التصويرى .. غرافيكس للتجهيزات الفنية ت : ٢١٢٩١٨٤